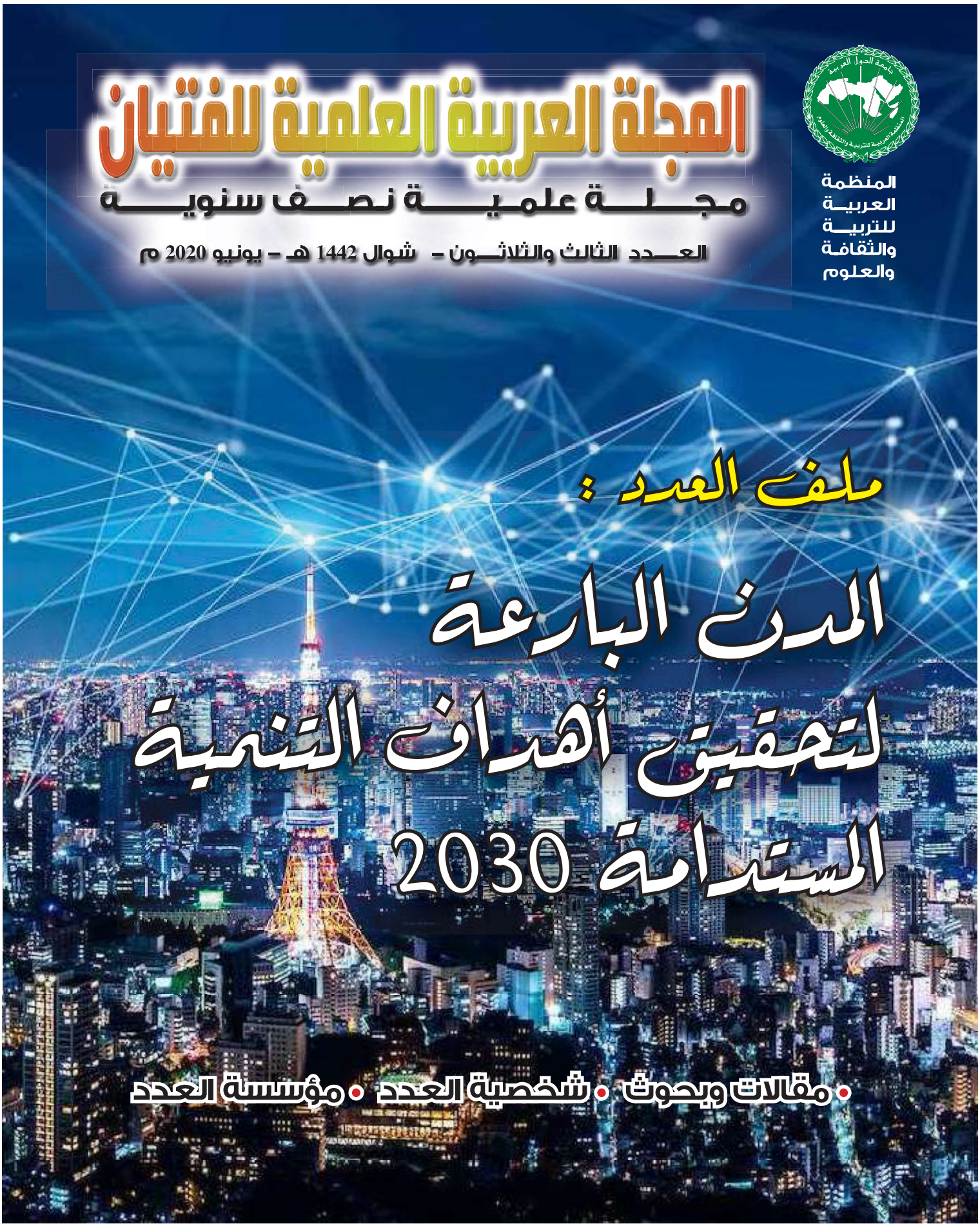

المجلة العربية العلمية للفتيان

مجلة علمية نصف سنوية

العدد الثالث والثلاثون - شوال 1442 هـ - يونيو 2020 م

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

ملف العدد :

المدن البارعة لتحقيق أهداف التنمية المستدامة 2030

• مقالات وبحوث • شخصية العدد • مؤسسة العدد

مقالات وبحوث :

- تاريخ العلوم الطبيعيّة — 52

  د. المعتزّ بالله السّعيد

- أهم أركان التعلّم — 57

  أ. د. محمد أحمد طجو

- المكملات الغذائية... الفوائد والأضرار — 65

  د. خالد صلاح حنفي محمود

- شخصية العدد : — 69

  سميرة موسى : عالمة الذرة المصرية

- مؤسسة العدد : — 72

  «دار العلوم...» مدرسة التراث والمعاصرة

  د. المعتز بالله السعيد

تاريخ العلوم الطبيعيّة

د. المعتزّ باللّه السّعيد

ما العُلوم الطَّبيعيَّة ؟!

كثيرةٌ هي الظَّواهرُ الطَّبيعيَّةُ حَولَنا؛ نشعرُ بها في كلِّ المحسوسات في هذا الكون. على سبيل المثال، إذا أسقَطتَ كأسًا من الزُّجاج فسوفَ يقعُ على الأرض، وقد ينكسرُ وتتناثرُ أجزاؤُه. وإذا قرَّبتَ يَدَكَ إلى النَّار لتلمسَها فستحترق، وإذا سَقَيتَ النَّباتَ بالماء فسيزهُو ويزدهر. وإذا قُمتَ بتسخين الماء على درجات حرارة عالية فسوفَ يتصاعدُ بُخارُه؛ وهكذا.

تهتمُّ العلُومُ الطَّبيعيَّة بدراسة مثل هذه الظَّواهر الَّتي تتَّصلُ بالعالَم المادِّيِّ المحسوس من حولنا؛ وتختلفُ عن أصناف العُلُوم الأخرى، كالعُلُوم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة الَّتي تدرسُ خصائص الأفراد والمُجتَمَعات (مثل: علم النَّفس، وعلم الاجتماع، وعُلُوم اللُّغة، والاقتصاد، والتَّاريخ، والقانون)، والعُلُوم الشَّكليَّة الَّتي تدرسُ المفاهيمَ المُجرَّدة غَير المحسوسة (مثل: المنطق، والإحصاء). أمَّا العُلُومُ الطَّبيعيَّة فقوامُها الطَّبيعةُ ذاتها في أشكالها المحسوسة الَّتي تُحيطُ بالبشر، سواءٌ أكانَت هذه المحسوساتُ مُستقرَّةً على الأرض كالموجودات من الأحياء والنَّباتات، أم في بطن الأرض كالصُّخور والحفريَّات، أم خارجَ حُدُودها، كالكواكب والأجرام.

فُرُوعُ العُلُوم الطَّبيعيَّة

تتفرَّعُ عن العُلُوم الطَّبيعيَّة أصنافٌ مُتعدِّدة من العُلُوم الَّتي تهتمُّ جميعًا بالظَّواهر الطَّبيعيَّة في هذا الوُجُود، وصفًا وتفسيرًا. ويُمكنُ تقسيمُ العُلُوم الطَّبيعيَّة إلى قسمَين أساسيَّين، هما: عُلُوم الحياة، والعُلُوم الفيزيائيَّة. وتتفرَّعُ عن كُلٍّ منهما مجموعةٌ كبيرةٌ من العُلُوم.

يهتمُّ القسمُ الأوَّلُ (عُلُوم الحياة) بدراسة الكائنات الحيَّة، من البشر والنَّباتات والحيوانات. وترتكزُ هذه العُلُوم على كُلّ ما يتَّصلُ بالتَّكوين الأحيائيّ (الملموس) لهذه الكائنات، دونَ النَّظر إلى سُلُوكيَّاتها (غَير الملموسة) الَّتي تهتمُّ بها عُلُومٌ أخرى. ومن الأمثلة على عُلُوم الحياة (علم الأحياء، والطِّبّ، والصَّيدلة، وعلم النَّبات، وعلم الحيوان، وعلم الغذاء، وعلم البيئة). وتتنامى هذه العُلُومُ نتيجةَ الازدهار المعرفيّ والتَّداخُل مع بعض العُلُوم الأخرى، فتظهرُ عُلومٌ حياتيَّةٌ مثل (الهندسة الزِّراعيَّة، وعلم الأحياء الدَّقيقة، وعلم وظائف الأعضاء، وغَير ذلك).

أمَّا القسمُ الآخَر (العُلُوم الفيزيائيَّة) فيهتمُّ بدراسة المحسوسات الكونيَّة غَير الحيَّة. وهُناكَ العديدُ من العُلُوم الَّتي تتبعُ هذا القسم. منها (علم الفيزياء، وعلم الكيمياء) اللذان يهتمَّان بالظَّواهر الطَّبيعيَّة على الأرض، و (علم الأرض) الَّذي يهتمُّ بهيكل الأرض والتَّفاعُلات الحادثة في باطنها، و (علم الفلك) الَّذي يهتمُّ بما يدورُ حولَها من الأفلاك والكواكب والنُّجوم.

كيفَ نشأت العُلُوم الطَّبيعيَّة ؟!

وُجِدَت المعرفة مع وُجُود الإنسان على الأرض. وكانَ عليهِ أن يفهمَ كثيرًا من الظَّواهر المُحيطة به ليتمكَّنَ من العَيش. وساعدَتْ المعرفةُ الإنسانَ القديمَ على التَّكيُّف مع الكائنات والمُكوِّنات، فاستطاعَ أن يجدَ مأكله وملبسَه من الحيوان والنَّبات، وقادَتْهُ المعرفةُ إلى الشُّعور بالدَّاء وصُنع الدَّواء. لكنَّ هذه المعرفة كانت عشوائيَّة إلى حدٍّ كبير. فالإنسانُ يُدركُ أنَّ سُقوطَ الشَّيء من يَدِهِ سيكونُ إلى الأسفل، ويُدركُ أيضًا أنَّ دفْعَهُ الشَّيءَ سيكونُ إلى الأمام؛ لكنَّهُ مع ذلك لم يكُن على درايةٍ كافيةٍ بقوانين الجاذبيَّة والحركة الَّتي تتولَّدُ عن سُقوط الشَّيء أو دَفْعِه.

ومع تكاثُر البشر وازدياد حاجاتهم، تمكَّنَ الإنسانُ من فهم كثيرٍ من الظَّواهر الطَّبيعيَّة؛ واستثمرَ فهمَهُ في سدِّ احتياجاتِهِ من الملبس والمأكل والمشرب والدَّواء، وتمكَّنَ من حساب المواقيت والأزمان الَّتي ترتبطُ بالنُّجوم والأجرام، واستطاعَ أيضًا أن يستثمرَ مصادرَ الطَّاقة في تحريك الأشياء. وكانَ لا بُدَّ له من تنظيم تلكَ المعارف الطَّبيعيَّة، لأنَّ حياتَهُ كُلَّها تقومُ عليها، بما في ذلكَ بقاءُ الجنس البشريّ ذاتِه؛ إذ يرتبطُ هذا البقاءُ بالتَّمييز بينَ الذَّكر والأنثى، وفهم مراحل نشأة الجنين في بطن أمِّهِ، وأطوار اكتمال الإنسان، ومراحل حياتِهِ من المولد حتَّى الممات.

يُحدِّثُنا التَّاريخُ أنَّ العُلُومَ الطَّبيعيَّة قد ظهرَت في كتابات حضارات مصر القديمة وبلاد ما بينَ النَّهرين (العراق والشَّام)؛ حيثُ تبدو عنايةُ أصحاب هذه الحضارات بعلُوم الفَلَك والحساب، لأغراضٍ دينيَّة أو حياتيَّة. وكانَ هذا قبلَ نحو ثلاثة آلاف عامٍ قبل الميلاد. وفي ثقافة الصِّينيِّينَ القُدماء أنَّهم اهتمُّوا بتشريح الإنسان ودراسة الطِّبّ واكتشاف فوائد النَّبات في إطالة العُمر وعلاج الأمراض؛ والأمرُ كذلك في حضارة وادي السِّند (الهند القديمة وباكستان) الَّتي استطاعَت أن تُقدِّمَ تصوُّرًا دقيقًا – إلى حدٍّ ما –

لشكل جسم الإنسان من الدَّاخل، من خلال التَّشريح.

ومع هذا، يبدو أنَّ الطَّفرةَ الحقيقيَّة في دراسة العُلُوم الطَّبيعيَّة كانت لدى اليونانيِّينَ القُدماء. فقد اهتمَّ الفلاسفةُ القُدماءُ في اليونان بالفلسفة الطَّبيعيَّة الَّتي مَهَّدَت لدراسة العُلُوم الطَّبيعيَّةِ على أُسُسٍ علميَّةٍ فيما بعد. وكانت هذه العنايةُ في حدود القرن الخامس قبلَ الميلاد؛ حيثُ ظهرَ فلاسفةٌ أمثالُ "طاليس" الَّذي اهتمَّ بدراسة الزَّلازل وأسباب وُجُودِها وحُدُوثها، وظهرَت أيضًا أفكارُ الفيلسوف "ليوكيبُوس" الَّذي اكتشَفَ النَّظريَّةَ الذَّرِّيَّةَ في مرحلةٍ مُبكِّرةٍ من تاريخ البشريَّة. وظهرَت كذلكَ أفكارُ عالم الرِّياضيَّات اليونانيّ الشَّهير "فيثاغورس" الَّذي اهتمَّ بعلوم الرِّياضيَّات وتطبيقها في دراسة الفَلَك، وكانَ واحدًا ممَّن آمنوا بأنَّ الأرضَ كرويَّة.

لقد اهتمَّت الأمم القديمة بدراسة العلوم الطَّبيعيَّة بأساليبَ مُختلفةٍ ولأغراضٍ مُتعدِّدة. واستطاعت أن تُحقِّقَ نقلةً نوعيَّةً من مُجرَّد إدراك وُجود الظَّواهر الطَّبيعيَّة على الأرض وحولَها إلى فهم أسباب حُدُوث هذه الظَّواهر. وفي مرحلةٍ لاحقة، تمكَّنَ العُلماءُ من توظيف هذه الظَّواهر في خدمة الإنسان وإعمار الأرض الَّتي يعيشُ عليها. وأيًّا كانت الأساليبُ أو الأغراض، فهي الَّتي مهَّدَت الطَّريقَ للإنسان فيما بعد لكثيرٍ من الاختراعات والاكتشافات في عُلُومٍ شتَّى.

العُلُوم الطَّبيعيَّة عندَ العَرَب.

عَرَفَ العربُ الطَّريقَ إلى العُلُوم الطَّبيعيَّة في وقتٍ مُبكِّر. ومع ظُهُور الإسلام، أخذَت معرفةُ العرب بهذه العُلُوم شكلًا أكثرَ انتظامًا، نتيجةَ التَّأثيرات الثَّقافيَّة والحضاريَّة للأمم الأخرى في المُجتَمَع العربيّ. وقد ساعَدَت حركةُ التَّرجمة الَّتي قامَت في الدَّولة العبَّاسيَّة على نقل المُؤلَّفات الَّتي أنجزَها العُلماءُ البارعونَ في العلوم الطَّبيعيَّة من الأمم السَّابقة، لا سيَّما تلكَ الَّتي أفرزتها حضارةُ اليونان. ويُمكنُ القولُ إنَّ النَّهضةَ الحقيقيَّة للعُلُوم الطَّبيعيَّة عندَ العرب قد بدأت في القَرن الثَّاني الهجريّ. وشملت هذه النَّهضةُ ميادينَ علميَّة عديدة.

في القرن الثَّاني الهجريّ مثلًا، برزَت أسماءُ عددٍ من العُلماء البارعينَ في الكيمياء والطِّبّ والصَّيدلة، أمثال (جابر بن حيَّان) الَّذي برعَ في الكيمياء واخترعَ عددًا من الأحماض والمُرَكَّبات، وبرعَ أيضًا في الطِّبّ والصَّيدلة والهندسة والفلك؛ وانتشرَت أعمالهُ كثيرًا لدى الأوروبيِّين في العُصُور الوُسطى. وبرزَ كذلك (حُنَين بن إسحق) الَّذي كانَ طبيبًا بارعًا؛ حيثُ قامَ بترجمة عددٍ من كُتُب الأطبَّاء اليونانيِّين، وألَّفَ كُتُبًا أخرى في ميادينَ طبيَّة. ولعلَّهُ أوَّلُ من يُعنى بالتَّأليف في أمراض العَين من الأطبَّاء العرب. ومن أعماله في ذلك: العَشر مقالات في العَين، والمسائل في العَين، وكتاب تركيب العَين؛ بالإضافة إلى ترجمته المشهورة لكتاب (الفُصُول الأبقراطيَّة).

وفي القرن الثَّالث الهجريّ، برزَ الطَّبيبُ والفيلسوفُ المشهور (أبو بكر الرَّازي) الَّذي يُوصَفُ بأنَّهُ واحدٌ من

أعظم الأطبَّاء في تاريخ الإنسانيَّة جمعاء. وقد ألَّفَ كتابًا ضخمًا في الطِّبّ، هو كتاب (الحاوي) الَّذي تُرجِمَ إلى اللُّغة اللَّاتينيَّة وظلَّ واحدًا من أشهر كُتُب الطِّبّ وأهمِّها لما يتجاوزُ أربعةَ قُرُون. وبرعَ الرَّازي كذلكَ في عُلُوم الكيمياء والمنطق والرِّياضيَّات. ومع أنَّ الرَّازي قد وُلِدَ في بلاد فارس، إلَّا أنَّهُ نشأَ وتعلَّمَ في بغداد، وصنَّفَ كثيرًا من كُتُبه باللُّغة العربيَّة.

وبرزَ أيضًا (ثابت بن قُرَّة) الَّذي برعَ في عُلُوم الفلك والهندسة والطِّبّ والطَّبيعة، وكانَ أوَّلَ من يتمكَّن من حساب طُول السَّنة الشَّمسيَّة. وقد ترَكَ الكثيرَ من الكُتُب والمُصَنَّفات الَّتي لا تزالُ شاهدةً على ذكائِهِ وبراعته، منها: كتاب في المسائل الهندسيَّة، وكتاب المُختَصَر في علم الهندسة، ومقالة في حساب خُسُوف الشَّمس والقمر، وغير ذلك من المُصَنَّفات، إضافة إلى ترجمته المشهورة لكتاب المدخل إلى علم العدد، الَّذي ألَّفَهُ عالم الرِّياضيَّات اليونانيّ (نيقوماخس).

وفي مراحلَ زمنيَّةٍ مُتزامنةٍ ولاحقة، برزَ كثيرٌ من الأعلام الآخرين، منهم: يعقوب بن إسحق الكِندي، ويحيى بن ماسويه، وأحمد بن الجزَّار القيروانيّ، وخَلَف بن عبَّاس الزَّهراويّ، وجابر بن أفلح الإشبيليّ، ولسان الدِّين بن الخطيب، وغيرهم كثيرٌ ممَّن صَنَعُوا النَّهضةَ العربيَّةَ في العُلُوم الطَّبيعيَّة. والواقعُ أنَّنا لو أردنا التَّركيزَ على تاريخ العُلُوم الطَّبيعيَّة عندَ العرب، فسيطولُ بنا الحديث، لكثرة ما نجدُ من الأعمال الفريدة والرَّائدة في مُختلَف ميادين هذه العُلُوم. لكنَّنا نكتفي بتلكَ اللَّمحة الَّتي تصفُ لنا شيئًا من تاريخ أسلافنا وعنايتهم المُبكِّرة بالعُلُوم الطَّبيعيَّة.

ولعلَّنا بحاجةٍ إلى إحياء تُراث هؤلاء الأسلاف، لنُدرِكَ أثرَ ما تركوهُ علينا وعلى الأمم الأخرى.

العُلُوم الطَّبيعيَّة بينَ الماضي والحاضر.

لو تتبَّعنا شكلَ العلوم الطَّبيعيَّة في مهدِها، لوَجَدناها وليدةَ الحاجة البشريَّة إلى التَّكيُّف والبقاء في هذه الحياة. فلو لم يعرف الإنسانُ الطِّبَّ والصَّيدلة والكيمياء ما تمكَّنَ من اكتشاف الأمراض والأدوية. ولو لم يعرف قوانينَ الحساب والهندسة والفلك ما أدركَ الزَّمنَ ولا عرفَ فُصُولَ السَّنة وتقلُّبات الأجواء فيها، وما استطاعَ أن يبني المساكنَ والمعابد. ولو لم يعرف قوانينَ الفيزياء ما اخترعَ الآلات الحديثة الَّتي أصبحت تُسَيِّرُ أمُورَنا؛ وغير ذلكَ كثير.

ومع أنَّ معرفةَ الإنسان الأوَّل لم تقُم على أُسُسٍ علميَّةٍ مُنظَّمة، إلَّا أنَّ هذه المعرفةَ ساعدتْهُ على إدراك طبيعة الحياة، وأوجَدَت لهُ السُّبُلَ لإعمار الأرض، انطلاقًا من فهمِه للظَّواهر المُحيطة به. وكانَ لهذه المعرفة البدائيَّة الأثرُ الأكبرُ في تنظيم شكل العُلُوم الطَّبيعيَّة لاحقًا، على نحو ما أشرنا إليه آنفًا. وبعدَ أن كان الهدفُ من هذه العُلُوم توفيرَ وسائل

الحياة، أصبحَ الهدفُ تطويعَ هذه الوسائل وتطويرَها لتُناسبَ الإنسانَ في العُصُور التَّالية وتجعلَ حياتَهُ أكثرَ رفاهية.

ولم تتوقَّفْ دراسةُ العلُوم الطَّبيعيَّة عندَ توفير وسائل الحياة وتطويرها؛ بل تجاوزَت ذلك كثيرًا إلى التَّنبُّؤ ببعض ما يُمكنُ أن يقعَ في المُستقبل. سنُلاحظُ مثلًا أنَّ عُلماءَ الفلك يستثمرونَ معارفَهم في التَّنبُّؤ بأحوال الطَّقس؛ وسنُلاحظُ أنَّ عُلماءَ الأرض (الجيولوجيا) قادرونَ على التَّنبُّؤ بوقوع الزَّلازل والبراكين؛ وسنُلاحظُ أخيرًا أنَّ عُلماءَ الطِّبّ والصَّيدلة قادرونَ على التَّنبُّؤ بنسبة الشِّفاء في بعض الأمراض. ولا يحدثُ شيءٌ من هذا إلَّا بقُدرة الله الَّذي علَّمَ الإنسانَ ما لم يعلَم.

ببليوغرافيا مرجعيَّة

• جلال مُحمَّد مُوسى (1982). منهج البحث العلميّ عند العَرب في مجال العُلُوم الطَّبيعيَّة والكونيَّة، دار الكتاب اللُّبنانيّ.

• ماهر عبد القادر (1985). مناهج ومُشكلات العُلُوم: الاستقراء والعُلُوم الطَّبيعيَّة، مُؤسَّسة المعارف للطِّباعة والنَّشر.

• محجوب حسين (2005). إسهامات الحضارة الإسلاميَّة في العُلُوم الطَّبيعيَّة والكونيَّة، هيئة رعاية الإبداع العلميّ.

• David Ebrey. (2015). Theory and Practice in Aristotle's Natural Science. Cambridge University Press.

• David Gooding, Trevor Pinch, Simon Schaffer. (1989). The Uses of Experiment: Studies in the Natural Sciences. Cambridge University Press.

• J O Wisdom. (2013). Foundations of Inference in Natural Science. Routledge.

• Leon R. Kass. (2008). Toward a More Natural Science. Simon and Schuster.

• Stephen M. Barr. (2014). A Student's Guide to Natural Science. Open Road Media.

مؤسسة العدد

«دار العلوم»... مدرسة التراث والمعاصرة

د. المعتز باللّه السعيد

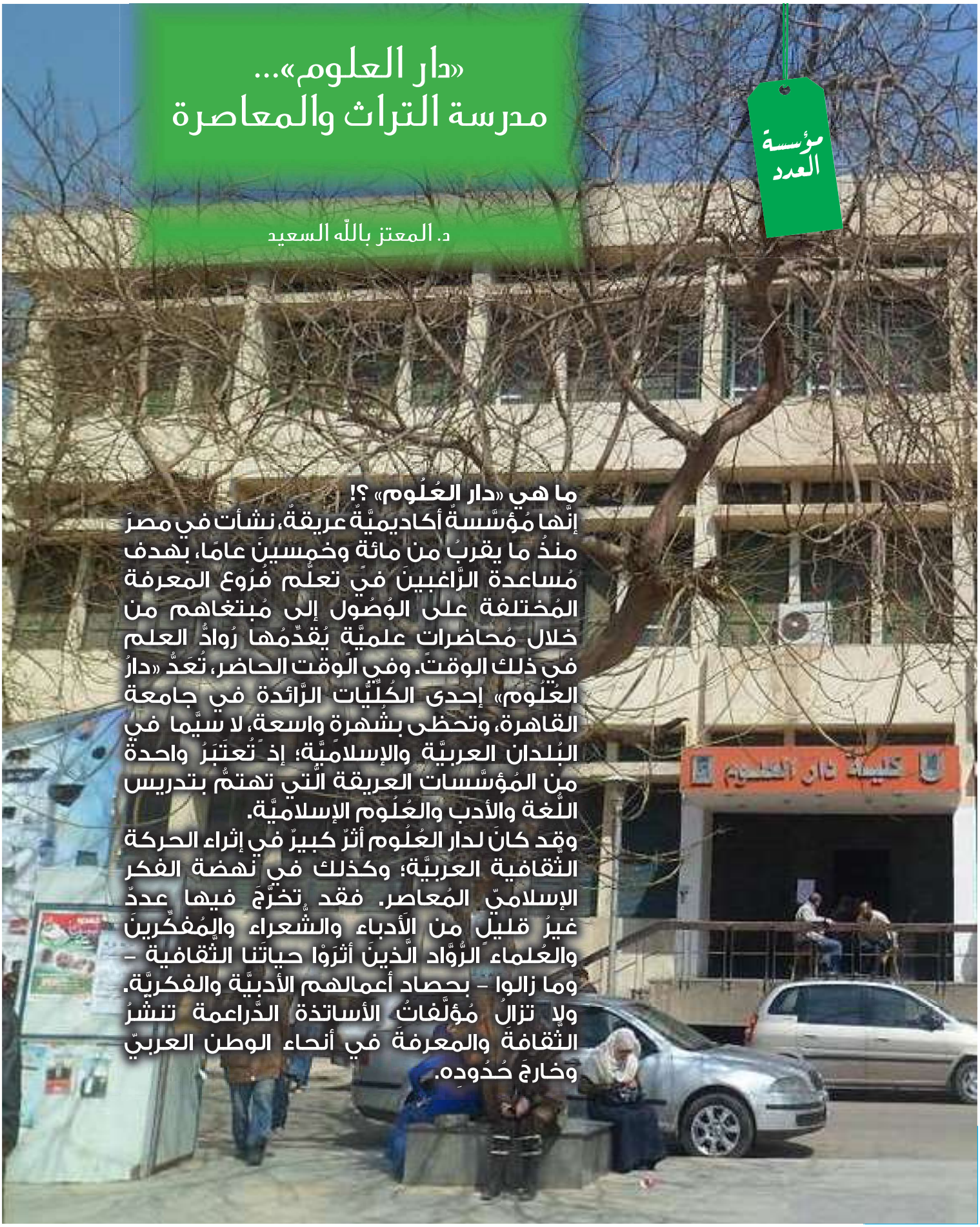

ما هي «دار العُلوم» ؟!

إنَّها مُؤسَّسةٌ أكاديميَّةٌ عريقةٌ، نشأت في مصرَ منذُ ما يقربُ من مائةٍ وخمسينَ عامًا، بهدف مُساعدة الرَّاغبينَ في تعلُّم فُروع المعرفة المُختلفة على الوُصول إلى مُبتغاهم من خلال مُحاضرات علميَّة يُقدِّمُها رُوادُ العلم في ذلك الوقت. وفي الوقت الحاضر، تُعَدُّ «دارُ العُلُوم» إحدى الكُلِّيَّات الرَّائدة في جامعة القاهرة، وتحظى بشُهرة واسعة، لا سيَّما في البُلدان العربيَّة والإسلاميَّة؛ إذ تُعتَبَرُ واحدة من المُؤسَّسات العريقة الَّتي تهتمُّ بتدريس اللُّغة والأدب والعُلُوم الإسلاميَّة.

وقد كانَ لدار العُلُوم أثرٌ كبيرٌ في إثراء الحركة الثَّقافية العربيَّة؛ وكذلك في نهضة الفكر الإسلاميّ المُعاصر. فقد تخرَّجَ فيها عددٌ غيرُ قليلٍ من الأدباء والشُّعراء والمُفكِّرينَ والعُلماء الرُّوَّاد الَّذينَ أثرَوْا حياتَنا الثَّقافية - وما زالوا - بحصاد أعمالهم الأدبيَّة والفكريَّة. ولا تزالُ مُؤلَّفاتُ الأساتذة الدَّراعمة تنشرُ الثَّقافةَ والمعرفةَ في أنحاء الوطن العربيّ وخارجَ حُدُودِه.

دار العُلُوم .. الفكرة والتَّنفيذ.

تعودُ فكرةُ إنشاء «دار العلوم» إلى عليّ مُبارك (1823 - 1893) الَّذي كانَ واحدًا من أبرز رُوَّاد التَّعليم في مصر الحديثة. وقد سَعى عليّ مُبارك بدعم الحكومة المصريَّة إلى تنفيذ فكرته بعدَ عودته من رحلته إلى فرنسا؛ حيثُ كانَ مبعوثًا للدِّراسة في مدارسها ضمنَ مجموعة من الطُّلَّاب النَّابهين. وكانت الفكرةُ مُحاولةً لمُحاكاة بعض التَّجارب الجادَّة الَّتي شَهِدَها عليّ مُبارك أثناءَ بعثَته؛ إذ يبدو أنَّ أُعجبَ بأساليب التَّدريس في المدارس والجامعات الفرنسيَّة.

لقد كانَ هدفُهُ بناءَ مدرسة عالية، تُدرَّسُ فيها العُلُوم بطريقة مُتقدِّمة تُواكبُ العصرَ وتُنمِّي جوانبَ الإبداع لدى طُلَّابها وتمزجُ التُّراثَ الأصيلَ بالحداثة النَّاشئة. وتحقَّقَ لهُ ما أرادَ، فبدأ العملُ في دار العلوم في السَّادس من مايو عام 1871م. ومع افتتاح دار العُلُوم، أقبلَ عليها المُوظَّفونَ والمُعلِّمونَ وعددٌ من الطُّلَّاب المُنتسبين للأزهر الشَّريف، وكذلك بعض الدَّارسين في المدارس العالية. وقد حَرَصَ عددٌ من المُثقَّفينَ ورجال الدَّولة على الحُضور، بمن فيهم علي مُبارك نفسه. أمَّا الأساتذةُ فكانوا من أعلام اللُّغة والثَّقافة والفكر من المصريِّينَ والفرنسيِّين. وفي فترة وجيزة، ذاعَ صَيتُ دار العُلُوم وزادَ الإقبالُ عليها من راغبي المعرفة في المُجتمَع المصريّ.

دار العُلُوم في مهدها

لم تكُن «دارُ العُوم» في مهدها مدرسةً نظاميَّة. بل كانَت أقربَ إلى المُنتَدى العلميّ الَّذي يتَّسعُ لمن أرادَ تحصيلَ المعرفة دونَ قَيدٍ أو شَرط. ولعلَّها بهذه الصُّورة مَثَّلَت نموذجَ مُحاكاةٍ للمعهد الفرنسيّ العريق «كوليج دو فرانس Collège de France" الَّذي يفتحُ أبوابَهُ لمن شاءَ من مُختَلَف الفئات والأجناس. وقد خُصِّصَت قاعةٌ لدار العلوم في دار الكُتُب المصريَّة – الَّتي كانت حديثةَ العهد – لتُلقى فيها المُحاضراتُ وتُدارَ المُناقشاتُ بينَ الأساتذة والطُّلَّاب.

كانت فكرةُ إنشاء "دار العلوم" مُبتَكرةً في ذلكَ الوقت إلى حدٍّ بعيد، لأنَّها تجاوزَت تدريسَ العلومَ اللُّغَويَّة والشَّرعيَّة الَّتي تُدرَّسُ في الأزهر الشَّريف، وتجاوزت أيضًا العُلُومَ الأخرى الَّتي تُدرَّسُ في المدارس النِّظاميَّة؛ حيثُ جمعَت دارُ العلوم بينَ التُّراث والمُعاصَرة، واهتمَّ القائمونَ عليها بمُختلَف أصناف المعرفة. وتبدو هذه العناية في طبيعة المُحاضرات الَّتي كانت تتناولُ عُلُومَ الأدب والتَّاريخ والفقه والتَّفسير والحديث، وتتناولُ أيضًا عُلُومَ الفلَك والطَّبيعة والنَّباتات، وفُنُون الأبنية والآلات، وكذلكَ فنَّ السِّكَّة الحديد – حديثَ العهد في ذلك الوقت. ويعكسُ الجمعُ بينَ كلِّ هذه العلوم والفنون صُورةً فريدةً لدار العلوم في هذه الآونة الَّتي غلبَ عليها الجُمُودُ الفكريّ.

دار العُلُوم النِّظاميَّة.

مع تزايُد الإقبال على مُحاضرات دار العُلُوم، أرادَ عددٌ من طُلَّاب الأزهر الشَّريف أن ينتظموا في الحُضُور للدِّراسة والتَّحصيل. وشَجَّعَت هذه الرَّغبةُ علي مُبارك على السَّعي إلى تحويل دار العُلُوم من مُنتدًى

علميٍّ حُرٍّ إلى مدرسةٍ نظاميَّة، لا سيَّما أنَّ الحاجةَ كانت تدعو في ذلك الوقت إلى وُجود مُعلِّمينَ أكْفاء، يقومون بمهامّ التَّدريس في المدارس المصريَّة. وخاطبَ علي مُبارك شيخَ الأزهر الشَّريف، يرجوهُ أن يُرشِّحَ لهُ عددًا من طُلَّاب الأزهر النَّابهينَ، ليكونوا نواةً لهذا المشروع. وقد رحَّبَ شيخُ الأزهر بذلك، فالتمسَ علي مُبارك إلى الخديوي إسماعيل، الَّذي كانَ حاكمًا لمصر، أن يُوافقَ على مشروعه، فأجابَهُ إلى ما طلبَ، وأصدرَ مَرسُومًا بذلك عام 1872م.

بهذا، أصبَحَت دارُ العُلُوم مدرسةً نظاميَّة، تُعرَفُ بـ «مدرسة دار العُلُوم الخديويَّة». وبدأت الدِّراسةُ المُنتظمةُ في دار العُلُوم بفَوجٍ من اثنَين وثلاثين طالبًا مُختارِينَ بعنايةٍ من شباب الأزهر الشَّريف، واختيرَ للتَّدريس فيها خمسةٌ من الأساتذة العُلماء. وعلى مدار عشر سنواتٍ كاملة، لم يكنْ عددُ الطُّلَّاب يتجاوزُ الخمسينَ في العامِ الواحد؛ حيثُ لم يكُن يُكتفى بتفوُّق الطُّلَّاب الرَّاغبينَ في الدِّراسة فيها؛ بل كانوا كذلكَ يخضعون لاختباراتٍ جادَّة لاختيار أكثرهم مُناسبةً لتحمُّل أمانة التَّعليم في المُستقبَل. ولأنَّ طُلَّابَ دار العلوم أزهريُّونَ في الأصل، فقد كانوا يدرسُونَ عُلُومَ اللُّغة والأدب والشَّريعة. أمَّا العُلُوم الأخرى – كالفلك والعُلُوم الطَّبيعيَّة – فقد كانوا مُخيَّرينَ بينَ تحصيلها أو تركِها. وتنامى عددُ الطُّلَّاب في دار العُلُوم شيئًا فشيئًا وازدادَ الطَّلبُ على الدِّراسة فيها مع الحاجة إلى شاغلي وظائف التَّعليم في مِصر.

تاريخ دارُ العُلُوم بينَ الماضي والحاضر.

مرَّت دارُ العُلُوم بمراحلَ عديدةٍ خلالَ تاريخِها الحافل. فقد أُنشئَت في بداية الأمرِ لتكونَ مُنتدًى علميًّا وثقافيًّا يتمازجُ فيه التُّراثُ والمُعاصَرة. ثُمَّ تحوَّلت إلى مدرسةٍ نظاميَّةٍ تهتمُّ بتخريج مُعلِّمي اللُّغة العربيَّة. وفي عامِ 1875 طُبِعَت المناهجُ الدِّراسيَّةُ في دار العُلُوم للمرَّة الأولى، واشتملَت على مناهجَ في عُلُوم اللُّغة (كالنَّحو والصَّرف) والأدب والخطّ والتَّفسير والفقه، بالإضافة إلى مناهجَ أخرى في الجُغرافيا والتَّاريخ والحساب والهندسة والطَّبيعة والكيمياء. وفي وقتٍ لاحقٍ، كانَ على أبناء دار العُلُوم أن يدرسُوا أساليبَ التَّدريس، نظريًّا وعمليًّا.

وفي عام 1885 انضَمَّت مدرسةُ الألسُن (الَّتي تهتمُّ بتدريس اللُّغات) إلى دار العلوم، فأصبحَ بإمكان الطُّلَّاب أن يدرسُوا إحدى اللُّغَتَين (الإنجليزيَّة أو الفرنسيَّة) بالإضافة إلى المُقرَّرات الأساسيَّة الَّتي يدرُسُونَها. ونظرًا لغلبة عُلُوم اللُّغة والشَّريعة على مناهج دار العُلُوم، فقد كانَ الدَّارسُ فيها يُلَقَّبُ رسميًّا بعدَ تخرُّجِه بلقب (الشَّيخ). ومن الطَّريف أنَّ هذا الأمرَ ظلَّ قائمًا حتَّى عام 1926م؛ حيثُ قرَّرَ أبناءُ دار العُلُوم حينَها أن يستبدلوا بملابسهم التَّقليديَّة – الَّتي تُشبهُ الزِّيَّ الأزهريّ – الزِّيَّ الإفرنجيّ الَّذي كانَ حديثَ الظُّهور نسبيًّا في المُجتَمَع المصريّ. وحينئذٍ، تحوَّلَ لقَبُ الدَّارس في دار العُلُوم بعدَ تخرُّجِه إلى (الأفندي)، بقرارٍ وزاريٍّ صدرَ عامَ 1927م.

وفي عام 1946م، بعدَ 73 عامًا من نشأة دار العُلُوم، تحوَّلَت من مدرسةٍ نظاميَّةٍ عاليةٍ إلى كُلِّيَّةٍ جامعيَّةٍ تتبعُ جامعة القاهرة (الَّتي كانت تُعرَفُ حينئذٍ بجامعة فُؤاد الأوَّل). وفي عام 1950م، استقرَّ أمرُ دار العُلُوم؛ حيثُ صدرَت لائحةٌ بالدَّرجات العلميَّة الَّتي تمنحُها للخرِّيجين. وتشملُ: درجة اللِّيسانس في اللُّغة العربيَّة وآدابها والعُلُوم الإسلاميَّة، ودرجة الماجستير في اللُّغة العربيَّة وآدابها أو في العُلُوم الإسلاميَّة، ودرجة الدُّكتوراه في اللُّغة العربيَّة وآدابها أو في

العُلُوم الإسلاميَّة. ومع أنَّ دارَ العُلُوم تتبعُ جامعةَ القاهرة منذُ هذا الوقت، إلَّا أنَّها ظلَّت مُستقلَّةً بموقعها خارجَ أسوار الجامعة لثلاثة عُقُود. ولم تنتقل إلى حَرَم الجامعة إلَّا عام 1980م.

ومع استقرار دار العُلُوم، أصبحَ يرتادُها الطُّلَّابُ من مصرَ ومن مُختَلَف أنجاء العالم. وأصبَحَت مناهجُها الدِّراسيَّةُ ترتكزُ على ثلاثة فُرُوع أساسيَّة، هي: اللُّغة العربيَّة، والأدب العربيّ، والدِّراسات الإسلاميَّة. وتتفرَّعُ هذه الفُرُوع إلى سبعة أقسام؛ حيثُ يُعنى قسمان بالفرع الأوَّل (اللُّغة العربيَّة)، هُما: قسم النَّحو والصَّرف والعَرُوض، وقسم علم اللُّغة والدِّراسات السَّاميَّة والشَّرقيَّة، ويُعنى قسمان بالفرع الثَّاني (الأدب العربيّ)، هُما: قسمُ تاريخ الأدب والنُّصُوص، وقسم البلاغة والأدب والنَّقد المُقارَن. أمَّا الفرعُ الثَّالث (الدِّراسات الإسلاميَّة) فتُعنى به ثلاثةُ أقسام، هي: قسم الشَّريعة الإسلاميَّة، وقسم الفلسفة الإسلاميَّة، وقسم التَّاريخ الإسلاميّ والحضارة الإسلاميَّة. ويدرسُ الطَّالبُ في دار العلوم مجموعةً من المُقرَّرات الَّتي تتبعُ هذه الأقسام السَّبعة، بالإضافة إلى اللُّغة الأجنبيَّة. ولا تزالُ دارُ العُلُوم تُؤدِّي دورَها الرَّائدَ حتَّى يومنا هذا، ساعيةً إلى تحقيق أهدافها النَّبيلة في حماية اللُّغة العربيَّة، وإحياء تُراثها النَّفيس.

مِن أعلام دار العُلُوم.

عبرَ التَّاريخ المديد لدار العُلُوم، تخرَّجَ فيها كثيرٌ ممَّن أضحَوا أعلامًا ورُوَّادًا في ميادين الثَّقافة والأدب والفكر. ولا يتَّسعُ المجالُ لسَرد هؤلاء جميعًا؛ لكنَّنا نُحاولُ الوُقُوفَ على أسماء بعض هؤلاء الَّذينَ كانوا خيرَ سُفراءٍ لدار العُلُوم.

فمن شُعراء دار العُلُوم، برزَ علي الجارم، وهاشم الرِّفاعي، وحفني ناصف، وعلي الجندي، ومحمود حسن إسماعيل، وفاروق شُوشة، وأحمد بخيت. ومن المُبدعينَ في كتابة القصَّة والرِّواية برزَ مُحمَّد عبد الحليم عبد الله. ومن النُّقَّاد برزَ أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، وصلاح فضل، والطَّاهر مكِّي. ومن أعلام الفكر الإسلاميّ برزَ حَسن البنَّا، وسيِّد قُطب، وعبد الصَّبور شاهين.

كذلك فقد تخرَّجَ في دار العُلُوم عددٌ من الرُّوَّاد في تحقيق التُّراث العربيّ ونشره، من أبرزهم: عبد السَّلام هارون، ومُصطفى حجازي، وعبد العظيم الدِّيب. وفي عُلُوم اللُّغة برزَ عددٌ غَيرُ قليل، منهم: إبراهيم أنيس، ورمضان عبد التَّوَّاب، وأحمد مُختار عُمَر، وكمال بشر. ونُشيرُ أخيرًا إلى أنَّ عددًا كبيرًا من هؤلاء الأعلام صاروا أعضاءً في مجمَع اللُّغة العربيَّة بالقاهرة. وعبرَ تاريخ مجمَع اللُّغة العربيَّة بالقاهرة، فقد حازَ رئاستَهُ إثنان من الدَّراعمة النُّبَهاء، هما: الدُّكتور إبراهيم مدكور، الَّذي كانَ رئيسَ المَجمَع من عام 1974م إلى عام 1995، والدُّكتور حسن الشَّافعيّ، الَّذي يتولَّى رئاسةَ المجمع منذُ عام 2012م حتَّى يومِنا هذا.

ببليوغرافيا مرجعيَّة

- أمين سامي (1917). التَّعليم في مِصر في سَنَتَي 1914 و 1915، مطبعة المعارف.
- حامد طاهر (د.ت). دار العُلُوم: رائعة علي مُبارك، جامعة القاهرة.
- علي مُبارك (1989). حياتي، مكتبة الآداب للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع.
- مُحمَّد عبد الجوَّاد (1952). تقويم دار العُلُوم: العدد الماسِّيّ، دار المعارف.
- طه حُسَين (2013). مُستقبَل الثَّقافة في مِصر. الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب.